يسعد لهلالي :جامعة فرحات عباس –سطيف –

سلوى لهلالي:جامعة الجزائر –2–

دور رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مجال التعليم والصحافة – الشيخ محمد خير الدين نموذجا–

تعتبر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أبرز الجمعيات التي تؤمن بدور التربية والتعليم لهذا صخرت الجمعية نفسها في خدمة الشعب الجزائري من خلال تشيد المدارس الحرة لتعليم وتربية النشئ على أسس الدين الإسلامي واللغة العربية، لهذا نحاول التعرف على دور رجال الجمعية في مجال التعليم والصحافة وقوفا عند دور الشيخ محمد خير الدين في نشر العلم والمعرفة

الكلمات المفتاحية: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التعليم، الصحافة، الشيخ محمد خير الدين

كانت جمعية العلماء تؤمن بدور التربية و التعليم في خدمة الشعب الجزائري وإيقاظه من سباته وحفظ تراثه ،منذ تأسيسها سنة 1931م وهي تشيّد المدارس الحرة لتعليم وتربية النشىء فيتعلمون اللغة العربية و الدين الإسلامي ،كما أنّهم يتلقون معارف أخرى كالتاريخ و الجغرافيا و الحساب،وقامت الجمعية ببناء المساجد الحرة البعيدة عن السيطرة الفرنسية ليتفقّه أبناء الجزائر و ليعرفوا جيّدا تاريخ بلادهم لأنّ الاستعمار الفرنسي كان هدفه القضاء على دين و لغة و تاريخ هذه الأمة.

في ظل تلك الظروف وجد الشيخ خير الدين نفسه أمام مسؤولية كبيرة خاصة بعد أن نال قسطا وافرا من العلوم و المعارف، كانت نهايتها نيل شهادة التطويع العالمية من جامع الزيتونة، لذلك عزم على منح أبناء بلاده ما تعلّمه، وأصبحت الظروف ملائمة عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،وانضم إلى عضويتها إلى جانب علماء أجلاّء كالإمام عبد الحميد بن باديس و الشيخ البشير الإبراهيمي و الشيخ الطيب العقبي وغيرهم ،و كلّهم عزم و إصرار للدفاع على كيان وشخصية هذه الأمة العربية الإسلامية.

أولا :دوره التـعليمي :

بدأ الشيخ محمد خير الدين نشاطه التربوي منذ أن عقد اجتماع الرواد سنة 1928م حيث كلّفه الإمام ابن باديس بالوعظ و الإرشاد بمسجد فرفار[*]،و القرى المجاورة له، فكان يعلّم أبناء المنطقة مبادئ الدين و اللغة وبعدها يتوجهون نحو قسنطينة أو إلى تونس أو الجامع الأزهر لمواصلة تعليمهم في مختلف العلوم والمعارف وقد أدى هذا النشاط التعليمي إلى تنسيق العمل الإصلاحي مع جماعة من الروّاد في بسكرة أمثال الشيخ الطيب العقبي، والشيخ علي بن عمارة البرجي، والشيخ محمد العيد آل خليفة، و الأستاذ الأمين العمودي.

لقد ساهم الشيخ خير الدين في تكوين "جمعية الإخاء" وتأسيس مدرسة الإخاء للتربية التعليم ببسكرة سنة 1931م واقترح أن يكون مجلس الإدارة من أعضاء لهم علاقة بالسلطة الفرنسية كي لا تقوم بعرقلتها ،أمّا مترجمنا فقد عين ككاتب عام فقط وهذا لضمان السير الحسن للمدرسة ونشر الثقافة العربية الإسلامية ومن النشاطات التي قام بها الشيخ خير الدين في بسكرة توحيد صلاة العيدين التي كانت تؤدي في عدد من المساجد الموزعة بين المدينة القديمة و الجديدة فأصبحت تقام لجميع المصلّين ببطحاء المدينة القديمة وقد وقع اختيار الشيخ خير الدين إماما لصلاة العيدين لمدة أربع سنوات[1].

لقد انطلق شيخنا في عمله الإصلاحي من فرفار ثم بسكرة و كان يؤمن إيمانا راسخا بدور التربية و التعليم في الحفاظ على كيان و تراث الأمة،خاصة أنّ منطقة الجنوب كانت تعاني من نشاط المرابطين، و حسب شارل أندري جوليان فإن تقديرات سنة 1939م أحصت 400 ألف منخرط في الزوايا، نصفهم بأراضي الجنوب وقد وضعت الحكومة يدها عليها[1]، و عندما أرست الحركة الإصلاحية أسسها ببسكرة

---

[*] حول نسب الشيخ محمد خير الدين عد الى مذكراته ،أما الذين درسوا على يده : فرحات بن الدراجي ،أحمد سحنون ،علي بن العرافي المغزي ،الطاهر بخوش، المختار المغزي ،عبد الرحمان غريّب،الحسين أبو عبد الله وغيرهم ،أنظر محمد خير الدين، مذكرات ، ج1 ،ط2،مؤسسة الضحى ،الجزائر ، 2002 ، ،ص74.

[1]محمد خير الدين : **مذكرات** ، ج1 ، المصدر السابق ،ص ص79-82.

[1]شارل أندري جوليان :المرجع السابق،ص126.

وضواحيها ،كان العلماء الآخرون ينشطون في مناطق أخرى من الوطن و أصبح العمل أكثر تنظيما بعدما وزع الإمام ابن باديس المهام على رجال الجمعية وفق مبادئها وأهدافها.

والحق أنّ نشاط الشيخ خير الدين كان ينبع من صميم القلب ،ومن جروح ومعاناة أبناء أمته ،وفي إطار أهداف الجمعية ونشاطاتها تم تأسيس جمعية خيرية لإعانة الفقراء والمساكين و تعليم البنين و البنات، مقرها بسكرة كان رئيسها أصيمدة عبد القادر، أما نائبه فهو الشيخ خير الدين وقد تعمّد مترجمنا أن لا يكون الرئيس لتفادي الصدام مع السلطة الفرنسية، و كي تصادق على قانون الجمعية و هو ما تم فعلا، كما أن تنقلات الشيخ في بسكرة وضواحيها لم تتوقف خاصة إذا تعلق الأمر بوفد لجمعية العلماء و على رأسها الإمام ابن باديس ،ففي جانفي 1938م[2]،زار وفد الجمعية قرية القنطرة في ضواحي بسكرة ،وكان الوفد يتكون من الإمام الرئيس والشيخ مبارك الميلي ، الشيخ العربي التبسي ،إضافة إلى مترجمنا ،وقد ألقى الوفد خطبا في الجامع ،وعند الانتهاء خطب الشيخ خير الدين في الناس، و عرّف بالجمعية و علمائها ومبادئها و أهدافها[3].

لقد استمر نشاط الشيخ خير الدين مع وفد الجمعية في الجنوب، فقد زار الوفد وادي سوف و طولقة، ومنها إلى بلدة سيدي عقبة و ذلك في سبيل التعريف بالجمعية وتنشيط الحركة الإصلاحية و التأكيد على أنها ليست خاصة بالشمال فقط، بل هي شاملة للقطر الجزائري ،وأنّ الجنوب من إهتمامات الجمعية ،مما أدى إلى تحرك خصوم الجمعية من مرابطين ورجال الزوايا محاولين منع العلماء من أداء رسالتهم الإصلاحية التي كان من بين أهدافها محاربة هؤلاء الخصوم الذين كانوا يعيشون في جمود وبعيدين عن واقع الأمة ومعاناتها ،كما أصبحوا أداة في يد السلطة الفرنسية[1].

---

[2]جريدة البصائر: مقال"_الجمعية الخيرية الإسلامية_" العدد 4، 24 جانفي 1936 ، ص7 .

[3]عبد اللطيف بن علي: "_وفد جمعية العلماء يزور القنطرة"_،جريدة البصائر،العدد95 ،14 جانفي 1938 ، ص5 .

[1]أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية،ج3،ط4،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ، 1992 ،ص95.

كما أن السلطة الفرنسية تفطّنت إلى خطر العلماء، لأنّ أصحاب الزوايا والمرابطين كان لهم دور في تحذير الإدارة الفرنسية بما أن مكانتهم أصبحت في خطر لذلك حاربت مدارس الجمعية و نواديها وحتى المساجد،فقد قامت بغلق المدرسة الحرة "دار الحديث"بتلمسان بتاريخ 31ديسمبر 1937م وأعلن ذلك الأجراء رسميا يوم 4 جانفي 1938م،هذا الإغلاق أحدث انفعالا كبيرا ،وهلّل له أعداء الشيخ البشير الإبراهيمي وأعداء الجمعية،حتى أنّ الجرائد في ذلك الوقت عندما أعلنت الخبر ذكرت اسم المكتب الخاص ولم تذكر المدرسة الحرة"دار الحديث".(*)

لقد ركزت السلطة الفرنسية على المدارس لكي تقيّد نشاط العلماء، فأصدر وزير الداخلية "شوتان" قرارا رسميا في 8 مارس1938م يمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر ومما جاء في ذلك القرار :<<إنّ اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية>>،وما كان لهذا القرار إلا أنّ زاد الشيخ خير الدين وزملاءه في الجمعية إصرارا على مواصلة جهودهم التربوية ،وبناءً على إحصاء عامل عمالة قسنطينة في سنة 1938م ، فعدد مدارس الجمعية في عمالة قسنطينة 85 مدرسة تضم 4047 تلميذا مسجلا،ويسيرها معلمون مصلحون،أما في عمالة الجزائر فبلغ عدد مدارسها عام 1938م 68 مدرسة تضم 9063 تلميذا(2).

و الحق أنّ مرسوم الثامن مارس المشؤوم قد عرقل التعليم العربي،كما أنّ ظروف الحرب العالمية الثانية قد أثرت في نشاط الجمعية التي أوقفت نشاطاتها كي لا تستغلها فرنسا في خدمة مصالحها،وعودة التعليم جاء بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حيث خطت الجمعية خطوة كبيرة بإنشائها لأعظم معهد ثانوي في تاريخها وهو معهد عبد الحميد بن باديس سنة 1947م.

(*) حول هذا الموضوع ارجع الى جريدة النجاح في مقال عنوانه: "غلق مكتب خاص بتلمسان" ، العدد 2090، 12جانفي 1938، .

(2)عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى، دراسة تاريخية و ايديولوجية مقارنة ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار ،1996،ص ص137-138.

ويقول الشيخ خير الدين [3]في ذلك :<< وهنا تبلورت فكرة إنشاء معهد ابن باديس قسنطينة ولم يكن من الممكن أن نعود إلى التعليم بالجامع الأخضر لأنه لم يكن لدينا رخصة للتعليم فيه كالتي كانت للإمام ابن باديس ،فجمعنا التبرعات وإشترينا دارا كبيرة كانت ملك أحد أفراد "إبن الفقون"،و أثّثنا هذه الدار وجهزناها بالطاولات والمقاعد والبسط،ووضعنا البرامج وعيّنا المدرسين الأكفّاء ،وتولى إدارة المعهد الشيخ العربي التبسي تساعده لجنة من الأساتذة>>،وقد عين الشيخ العربي التبسي مديرا للمعهد أما النائب فكان الشيخ خير الدين ،وقد حقّق المعهد نجاحا كبيرا مما أجبر الجمعية على توسيع المكان و الدخول إلى الجامع الأخضر، والجامع الكبير الممنوع التدريس فيها وفق قرار منع المساجد على الجمعية الذي صدر في27 فيفري 1933م، لقد حاولت السلطة الفرنسية أن تقضي على المدارس الحرة وأن تجذب أبناء الجزائريين للتعليم في مدارسها ،حيث نص الفصل 57 من قانون الجزائر الصادر سنة 1947م على إعتبار اللغة العربية إحدى لغات الإتحاد الفرنسي كما أنها تدرّس في مختلف مراحل التعليم،غير أن هذا النص لم يدخل حيّز التنفيذ إلاّ في سنة 1954م ، ولم يكن الشيخ خير الدين من الذين يضعون السلاح جانبا ويستسلمون للعدو، بل بالعكس فقد واصل نشاطه التربوي ،حيث قام برحلة علمية في ربيع 1948م إلى عمالة وهران ودشّن بها المدارس ونظّم الشعب وألقى دروس الوعظ و الإرشاد،وفي غليزان أُستقبل مترجمنا بحماس كبير وقد كتبت جريدة البصائر :<< وما دقّت الساعة الثانية حتى وقف القطار السريع يحمل إلينا شخصية بارزة من رجال العلماء الذين قاوموا الجهل والاستعباد ،والبدع و الضلال مدى عشرين عاما منذ تأسيس جمعية العلماء ،مع المرحوم الأستاذ عبد الحميد بن باديس ومع خلفائه من بعده،فالشيخ خير الدين رجل مضحّ بنفسه وبنفيسه، و ما من مشروع خيري للصالح العام إلاّ ويؤيّده ويمدّه وينصره...>>[1].

---

[3]محمد خير الدين : مذكرات ، ج1 ، المصدر السابق ،ص170

[1]فرحات العابد : "_الشيخ محمد خير الدين في غليزان" ،جريدة البصائر،العدد36، 17ماي 1948،ص07.

وبعد عودته إلى بسكرة رأى أنّ حركة التعليم تسير بشكل سريع وتعرف إقبالا كبيرا مماصعّب مدرسة تربية وتعليم(*)استقبال كل التلاميذ لذلك قرّر الشيخ خير الدين مع الأعضاء إنشاء مدرسة جديدة ، فشرع في البناء بنشاط مكثّف وكانت المرحلة الأخيرة قد بدأت في 18 ديسمبر 1949م عندما حلّ الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس الجمعية بدعوة من الجمعية المحلية وتمّ توجيه الدعوة إلى سكان بسكرة والزيبان ومن مختلف أنحاء القطر ،فحضر الحفل العلماء و النواب و الأطباء والمحامون، وتمّ افتتاح المدرسة ،وألقى الرئيس خطابا بليغا كعادته، ثم جاء دور الشيخ خير الدين فألهب الجمهور بكلمات بين العامية و الفصحى ومما قاله:<< إنّكم ستسمعون منّي كلمات ليست من باب الحمد و الشكر و لكنها من باب الحث و الإزعاج ،وسأصل بها مبدأ هذا العمل بنهايته فقد بدأناه مجتمعين ...وما دمنا في موقف استنهاض الهمم وشدّ العزائم وما دمت عارفا بأسرار لغتي وتاريخ أجدادي،فإنّني أؤثر أن يكون افتتاح هذا الحفل التاريخي بالشّعر ...فأنا أريد أن أرجع بكم إلى ذلك الماضي الجليل،ولئن قال لنا أقوام :إنّكم تعيشون في الماضي القديم ، قلنا إننا نعيش بالاستمداد من الماضي و العمل للحاضر و الاستعداد للمستقبل...>> وهكذا توالى فتح المدارس و بناء المساجد في شتّى أنحاء القطر ،ففي مدينة سطيف وفي يوم 8 أكتوبر1950م، تمّ تدشين مدرسة الفتح الجديدة ،وحضر حفل التدشين الشيخ البشير الإبراهيمي و الشيخ العربي التبسي و

(*)– وقد تخرج من هذه المدرسة عدد من الشخصيات البارزة :

الشهيد العربي بن مهيدي أحد رواد ثورة التحرير الستة،وأخوه محمد الذي استشهد في حرب التحرير بالولاية الثانية ،وحسن الشريف الذي استشهد في حوادث 8ماي 1945م بقالمة ،ومحمد الغسيري الذي صار أستاذا ومفتشا لمدارس جمعية العلماء وسفير ا في سوريا و الكويت و السعودية ،ومحمد مراوي المحامي ببانتة وخليفة العروسي الذي أصبح رائدا في جيش التحرير و الكاتب العام للولاية الخامسة في الثورة ووزير الاقتصاد في الحكومة الأولى بعد الاستقلال ،ومحمد شيبوب العقبي وأخوه،وخير الدين عبد السلام ،والمسعود الغسيري الذي صار كاتبا برتبة ضابط في الولاية الأولى،أما الأساتذة الذين تدارسوا على إدارة هذه المدرسة فهم المشائخ: محمد بن العابد الجيلالي، علي مرحوم ،علي المغربي ،أحمد معاش.أنظر: محمد خير الدين: **مذكرات** ، ج1 ،المصدر السابق،ص136.

الشيخ خير الدين و الأستاذ فرحات عباس وكان حاضرا أيضا أحد علماء فاس الشيخ إبراهيم الكتّاني، إضافة إلى أساتذة ومديرين آخرين من داخل البلدة وخارجهاكما كان للشيخ تنقلات إلى مناطق أخرى ،ففي عام 1948م زار بلدة ندرومة، رفقة الشيخ السعيد الزموشي، وكانت هذه البلدة عامرة بالزوايا حيث كان بها سبع زوايا ،ولم تنشأ بها شعبة لجمعية العلماء ،ولم تفتح بها أية مدرسة لتعليم القرآن و اللغة العربية، واقترح الشيخ خير الدين بناء مسجد كبير وتعيين إمام لأداء الصلوات وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد ،وتم بناء المسجد وإتشرت الحركة الإصلاحية فيها بشكل سريع[1]،ثم زار الشيخان بلدة بريقو[**]،وأسّسا بها شعبة وألقى الشيخ خير الدين حاضرة في المسجد إلى جانب محاضرة سعيد الزموشي بين من خلالها مقاصد الجمعية و أعمالها وآمالها[2].

[1]محمد خير الدين :**مذكرات** ، ج1، المصدر السابق ،ص232

[**]بريقو :المحمّدية حاليا :تقع شمال معسكر تبعد عنها ب 26 كلم.

[2]السعيد الزموشي: "**وفد جمعية العلماء في بريقو** ،جريدة البصائر ،العدد 43، 12 جويلية 1948م،ص02 .

وقد زار الشيخ خير الدين بلدة شاطودان[*]،في السابع من أفريل سنة 1954م وقام بتجديد هيئة المدرسة و الشعبة ،وقدّم التقرير المالي للجمعية وتمّ إنتخاب الهيئة الجديدة بإعادة تجديد الثقة فيها[1]،كما حل الشيخ ببلدة سوق أهراس في صيف 1954م وقام بوضع حجر الأساس لبناء المدرسة الجديدة ،وقد أقبل سكانها على البناء و الترميم فرحا بالمشروع العظيم[2].

وفي خريف 1954 تنقّل الشيخ خير الدين إلى أقصى الغرب الجزائري إلى بلدة بني صاف،حيث إفتتح بها "مسجد بني صاف" وممّا قاله الشيخ في خطبة الافتتاح:<< إنّ فتح المساجد معناه إحياء أمّة وميثاق مع الله على العمل لنشر الدين الصحيح التعاليم والنقيّة في هذا الوطن ...،أيها الإخوان إنّ الإنسان في هذه الحياة يحيا ثم يموت ثم لا يرجع إلا بعد أن يقف بين يدي الله، و الأمم كذلك ولكن الأمة لا تقبر بل تموت موتا معنويا وحياتها لا بروح تدخل وتخرج إنما تحيا بالحياة الحقة وما الحياة الحقة إلا العزة والكرامة والقوة...>>[3].

لقد إستمر شيخنا في خطبه البليغة ،بمختلف المساجد وفي مناسبات عديدة ،وكان ذلك في عهد الإمام عبد الحميد بن باديس الرئيس الأول لجمعية العلماء ،حيث ذكرنا سابقا أنّ النشاط الذي قام به الشيخ خير الدين هو الوعظ والإرشاد في بلدة فرفار وضواحيها، ونشر الحركة الإصلاحية بها ،فكانت تلك البداية التي فتحت له الطريق ليكون ضمن أبرز الوفود التي عيّنها الإمام ابن باديس عام 1933م للوعظ في شهر رمضان ،فكان ضمن قائمة وعّاظ مدينة قسنطينة بالجامع الكبير ،ثم عيّن في الوفد الأول من بين ثلاثة وفود كبيرة إلى جانب الإمام ابن باديس و الشيخ مبارك الميلي حيث ركزوا نشاطهم بالشرق الجزائري[1].

---

[*]شاطودان:شلغوم العيد حاليا:تقع غرب قسنطينة تبعد عنها ب 45 كلم.

[1]جريدة البصائر:" أعمال جمعية العلماء_" ،العدد 269، 30 أفريل 1954م،ص05.

[2]محمد مسلاتي:"آثار النهضة الإصلاحية بسوق أهراس"،جريدة البصائر ،العدد 25،276 جوان 1954م،ص07.

[3]محمد منيع: " إفتتاح مسجد بني مصاف وخطاب الشيخ خير الدين" ،جريدة البصائر ،العدد 283، 3 سبتمبر 1954،ص07.

[1]محمد خير الدين: مذكرات_ ، ج 1 ،المصدر السابق،ص ص221–226.

وهكذا كان الشيخ خير الدين يقوم بالوعظ في كل شهر رمضان ،ففي شهر ماي 1951م عيّن ببلدة العلمة،ثم عيّن بقسنطينة في ماي 1952م،وتنقّل بين مساجدها باعتباره النائب الثاني لرئيس الجمعية،ثم عيّن بالجامع الكبيبر بقسنطينة في أفريل 1954م[2]،كما تمّ تعيين شيوخ وأساتذة الجمعية في جميع مساجد القطر للوعظ والإرشاد و الدعوة للتمسك بالدين و اللغة و كانت أسماء الشيوخ و المناطق التي عيّنوا فيها تنشر في جريدة البصائر، و الحق أنّ مترجمنا كان حريصا على مدارس الجمعية دؤوب الحركة ،فكان يشرف على نشر الإعلانات الخاصة بأعظم معهد ثانوي شيّدته الجمعية "معهد ابن باديس"، وما يخص شروط قبول التلاميذ و ضمان الالتحاق العادي والحسن بالمعهد ،كما أنّ هذه الإعلانات التي تنشر في البصائر تساعد التلاميذ الجدد الراغبين في الالتحاق للدراسة بالمعهد بتحضير الوثائق اللازمة و الشروط الأخرى التي تدون مع الإعلان،وبعد أربع سنوات من مسيرة المعهد ،أصبح الشيخ خير الدين مديرا للمعهد نظرا للظروف الصحية التي كان يعاني منها الشيخ العربي التبسي لذلك طلب الاستعفاء من مهمته،كما أنّ الشيخ البشير الإبراهيمي طلب من مترجمنا تولي المهمة ،كونه نائب المدير[3].

و كانت لجان الامتحانات تقوم بدور كبير لتعيّن الناجحين بعد الامتحان ،وكان يشرف على اللجان الشيخ العربي التبسي والشيخ خير الدين ويشاركهم الإمام البشير الإبراهيمي في التنظيم[4].

---

[2]جريدة البصائر: "**قائمة الوعاظ لشهر رمضان** " ،العدد 269، 30 افريل 1954م،ص03.

[3]محمد خير الدين: مذكرات ، ج1 ، المصدر السابق ص170.

[4]جريدة البصائر: مقال "_معهد عبد الحميد بن باديس " ،العدد 158، 4جوان 1951م،ص02.

ونورد إحدى خطابات الشيخ خير الدين [1]في الاحتفال بالناجحين في الشهادة الأهلية بالمعهد: << فإنّ العلم أشرف المطالب وأسمى المقاصد و الرغائب فهو حياة الأمم وهو عزها ومجدها ...لقد فهم أسلافنا العظام هذه الحقائق فأقبلوا على العلم بجميع فنونه وتهافتوا على مناهله العذبة يكرعون منها فسادوا في الدنيا و قادوا الأمم وفتحوا – مع البلدان– القلوب و العقول ورفعوا مشعل الحضارة و المدنية...>>.

لقد كان الشيخ خير الدين حريصا على تلقين أبناء وطنه مختلف العلوم لأنّه كان يعرف قيمة العلم في بناء الحضارات ،لذلك لم يقتصر حرصه على تلاميذ المعهد والمدارس داخل الوطن بل امتد حرصه إلى خارج الوطن ،ففي جامع الزيتونة كان الشيخ يقوم بزيارات مستمرة ليتفقّد طلبة الجزائر وكان يلقي عليهم خطبا متنوعة،رغم أنّه كان يتعرض في بعض الأحيان للمضايقات من بعض الطلبة كتلك التي تعرض لها في صيف 1948م ،لكن رغم ذلك فمترجمنا كان يعي ما يحدث ويعرف أن هناك محاولة للنيل من الجمعية و سمعتها،لكن الطلبة استنكروا تلك الأفعال وأعلنوا تقديرهم واحترامهم لشيخهم وولاءهم لجمعية العلماء[2].

يمكن القول أنّ الشيخ خير الدين كان يخوض تنقلاته ويقوم بدوره التربوي بكل شجاعة من الشرق إلى الغرب ،ومن الشمال إلى الجنوب تاركا وراءه تلك الخطب البليغة الحماسية المثيرة للنفوس وخلفه تلك القلاع الحصينة من مدارس ومساجد، التي و بدون شك قد منعت الاستعمار الفرنسي من تسلّق أسوارها العالية المحصّنة بالدين الإسلامي واللغة العربية، ووراءها جند من أبناء الجزائر ،وبتلك الإنجازات التربوية التي قام بها شيخنا إلى جانب أقرانه العلماء ،حافظت الجمعية على مقومات الشخصية الوطنية.

ثانيا :نشاطه الصحفي.

---

[1]جريدة البصائر: مقال" خطاب فضيلة الأستاذ محمد خير الدين في الاحتفال بالناجحين في الشهادة الأهلية بالمعهد" ، العدد 281 ، 30 جويلية 1954 ، ص 01 .

[2]جريدة البصائر:مقال "الشيخ خير الدين في تونس ، إستنكار وتبرؤ"،العدد 41 ، 28 جوان 1948 ، ص 03 .

لقد كانت الصحافة من أهمّ الوسائل التي إعتمدتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في نشاطها الإصلاحي، وقد إستعملتها أحزاب أخرى كحزب البيان والحزب الشيوعي وحسب الدكتور أبو القاسم سعد الله فإنّ عبارة "الصحافة الوطنية"في العهد الاستعماري تعني الصحافة المعبّرة عن الاتجاهات الوطنية سواء منها المتطرفة أو المعتدلة وسواء كانت باللغة العربية أو الفرنسية،وقد ظهرت الصحافة الوطنية الجزائرية في بداية القرن العشرين ضعيفة الإخراج ،ركيكة الأسلوب ،لكنها إهتمت بالقضايا الوطنية ،فكانت صحافة نضال مستمر ضد الفساد و الاضطهاد وضد نظام الاندجينا[1]، رغم كان مستوى الكتابة متخلفا بشكل عام ومليئا بالأخطاء في اللغة والأسلوب ،ولم تسلم من ذلك إلا صحافة جمعية العلماء التي كانت صحافتها أكثر دقة وعناية من ناحية الأسلوب و اللغة.[2]

وفيما يخص الصحافة الإصلاحية لجمعية العلماء فبالإضافة إلى إستعمال العلماء للمدارس للحفاظ على اللغة العربية، وتخريج العلماء و المثقفين ،و المساجد للوعظ والإرشاد ،فالصحافة هيّأت الأرضية المناسبة للمصلحين لإقناع المجتمع بالتغيير وقبوله والابتعاد عن الخرافات و الأباطيل و الدفاع عن الدين واللغة و الوطن ،لذلك برز معظم قادة الجمعية بكتاباتهم التي كانت جرائد و صحف الجمعية فضاءً لها ،وقد نشط الشيخ محمد خير الدين كباقي الكتاب المصلحين بدعمه و تأييده للصحافة الإصلاحية وكانت البداية بمشاركته في شراء مطبعة بهدف إصدار جريدة "الإصلاح"ببسكرة ويقول الشيخ في مذكراته :<< كان أول أعمالي ببسكرة السعي لشراء مطبعة بالاشتراك مع جماعة المصلحين وذلك بهدف إصدار جريدة(الإصلاح)فقام كا من الشيوخ :[*]التي أدارها الشيخ الطيب العقبي>> .

---

[1]الزبير سيف الإسلام: تاريخ الصحافة في الجزائر ،ج4،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر: 1985،ص ص94-95.

[2]عواطف عبد الرحمان: الصحافة العربية في الجزائر(1954-1962)،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985م، ص33.

[*]لم يستطع الشيخ الطيب العقبي طبع جريدته الإصلاح في المطبعة الإسلامية بقسنطينة واتهم الشيخ أحمد بوشمال والإمام ابن باديس بعرقلته،انظر أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954م،ج5،ط1 ،دار الغرب الإسلامي 1998م،ص256.

الشيخ خير الدين و الشيخ محمد العيد و الأمين العمودي بشراء تلك المطبعة و التي سمّاها"المطبعة العلمية"،التي واصلت مسيرتها في نشر المقالات الدينية والاجتماعية ومع ظهور صحافة الجمعية وتطورها بعد سنة 1931م،نشطت أكثر الصحافة الإصلاحية رغم تعطيل السلطة الفرنسية لبعض الصحف سنة 1933م، وهي السنة النبوية،الشريعة،الصراط السوي أما مجلة الشهاب فقد إستمرت إلى غاية 1939م والتي كان الشيخ خير الدين أحد كتّابها[1]كما شقّت جريدة البصائر نفس الطريق وهي أيضا من أهم جرائد الجمعية التي بقيت لمدة طويلة وصدرت في سلسلتين: السلسلة الأولى تمتد ما بين 1935 إلى 1939 وكان الشيخ خير الدين صاحب الامتياز فيها ورئيس تحريرها الشيخ العقبي، أما السلسلة الثانية فصدرت مابين 1947–1956م وكان الشيخ البشير الإبراهيمي صاحب الامتياز فيها ورئيس تحريرها.

لقد كانت مقلات البصائر تمتاز بأساليب راقية و لغة سليمة وهذا ليس غريبا ما دام كتّاب هذه الجمعية اغلبهم من خرّيجي جامع الأزهر، و الزيتونة ،و الشيخ خير الدين من بين الذين تخرّجوا من الزيتونة ،فقام بنشر عدة مقالات في البصائر خاصة السلسلة الأولى كما أنّه صاحب الإمضاء في معظم البلاغات التي يصدرها المكتب الدائم للجمعية لأنه كان المراقب العام للجمعية في عهد الإمام ابن باديس وفي عهد الإمام البشير الإبراهيمي عيّن كنائب ثان للرئيس كما كان نائبا لمدير معهد ابن باديس .

وفيما يخص المقالات التي كتبها مترجمنا في الشهاب أو البصائر فهي تعالج مواضيع تدخل في إطار الحركة الإصلاحية ،وضمن أهداف جمعية العلماء، وهي تدور حول التعليم العربي الإسلامي و التعليم الرسمي، حرية المساجد، وقضية فصل الدين عن الدولة ،كما أنّه كتب حول الزوايا وهاجمها بقوة، بالإضافة إلى مقالات كان يدافع فيها عن الجمعية ويردّ على الخصوم الذين كانوا يهاجمون المصلحين .

[1]محمد الطاهر فضلاء :التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح،المرجع السابق،ص62.

وإذا تتبّعنا كتابات الشيخ خير الدين لوجدنا أنّها تصب في اتجاهات كثيرة ولم تقتصر على الإصلاح الديني فقط وفي هذا يقول الدكتور عبد الكريم بوصفصاف بانّ صحافة الجمعية لم يقتصردورها على نشر الإصلاح الديني فحسب بل كان من بين أهدافها الأساسية محاربة الطرق الصوفية و الإدارة الاستعمارية و العمل على إحياء الشخصية الجزائرية وربطها بالوطن العربي الإسلامي ،إبراز معالم التاريخ الوطني من أقدم العصور حتى أيامها،كما كانت تقوم بدور المعلم و المرشد والمربي ،بما تنشره من دروس وتوجيهات تربوية بين المسلمين الجزائريين>>.

ومن هنا كان دفاع الشيخ خير الدين عن التعليم العربي الإسلامي قويا هجومه ضد الطرقيين أقوي،ومن بين ما كتبه حول الزوايا:<< إنني أعلن صراحة أنّ هذه الزوايا لم تفعل في سبيل الإسلام شيئا يذكر فيشكر ،وإن فعلت فهو شيء طفيف لا يساوي فتيلا بالنسبة لما أخذته من المسلمين من أموال ومما تمتّعت به من الحظوة والتقدير الذي لا حدّ له>>.،أما ردّ الطرقيين فكان بواسطة كاتب مجهول بعبارات السبّ والشتم من جهة وتمجيد الزوايا من جهة ثانية، فكتب:<< لم يكن في الحسبان أن نخصّص وقتا من أوقاتي العامرة لمنازلة الكويتب الجبان وأن أسدّد سهام إنتقاداتي الصائبة نحو قلبه النّجس،لولا أنّه شوّه وجه الحقيقة و صوّر القضية في غير صورتها وألبسها غير حلّتها وجاء شيئا فريا، فأخذ ينعت الزوايا ورؤسائها ومريديها المعتكفين فيها إلى العبادة والأذكار والتعاليم بنعوت لا تتّفق مع الكرامة ...وليس على خير الدين بعد الخطأ! فهو المذبذب الذي لا غاية له ولا مبدأ و لا ثبات إلاّ الجري وراء مصلحته الخصوصية ...>>[1].

لقد كان الصراع قويا بين مترجمنا الذي كان ينشر أفكار الحركة الإصلاحية ويدافع عن أهدافها بينما الطرقيون كانوا يبرّرون أعمالهم ويرون أنّ نهجهم هو الصحيح ،ففي قضية التعليم كتب الشيخ خير

[1]مؤرّخ: "للحقيقة والتاريخ في الزوايا"،جريدة النجاح،العدد 3،2170 أوت 1938م.

الدين مقالا[2]، هو رد على ما كتبته جريدة النجاح حول "اللغة العربية و ازدهارها" و يتعجب لذلك فيقول :<< عجيب–والله– أمر هذه الصحيفة تدّعي أن اللغة العربية في ازدهار وانتشار بعد أن أعلنت الأمة تكذيب هذه الدعوة وإبطالها مرارا بما تشكوه من عرقلة التعليم العربي واضطهاده و محاولة القضاء عليه >>.وقد كتبت النجاح على لسان المراقب العام للجمعية الطرقية بقسنطينة :<< كتب خير الدين مراقب جماعة "الميعاد العصري"مقالا طويلا العدد 126 من البصائر حول التعليم الرسمي ...نقول لحضرة المراقب وشيعته أنّ هؤلاء العلماء الأعلام الذين نوّهت بعلومهم على صفحات جريدتكم التي هي لسان حالكم و ذكرت مالهم من أيادي بيضاء على أبناء الجزائر من جهة تعليمهم علوم دينهم و لغتهم ...هل كانوا مع علمهم و فضلهم كم أشهدت لهم بذلك خونة...>>.[3]

و هكذا إستمر الصراع بين العلماء و الطرقيين، فالاستعمار الفرنسي يقوم باضطهاد المدارس الحرة ويحرم أبناء الجزائريين من حقّهم في التعليم ، وإن توفّر لهم ذلك فإنهم حتما سيدرسون اللغة الفرنسية وعلومها و آدابها ،فأين هو إزدهار اللغة العربية؟ وما فعله الأولون في الزوايا لا ينكره أحد لكن دور معظم الزوايا في ظل الاستعمار كان التقوقع والجمود .

لقد كان الشيخ خير الدين مهتمّا بحالة التعليم العربي الإسلامي الذي هو رمز من رموز الأمة فإذا ما انقرض انقرضت معه الأمة وأصبح كيانها في خطر ،لذلك لم يقتصر نشاطه على تدشين المدارس و فتح بيوت الله عبر أنحاء القطر بل إستمر ذلك النشاط في جرائد جمعية العلماء فكتب مقالات نوهت بأهمية التعليم في الحياة ودعت الجزائريين إلى الدفاع عن لغتهم و دينهم ،ومن بين ما كتب:<< في هذا العصر شاع فيه العلم بين سائر الأمم و أصبح حقا طبيعيا لكل إنسان كيفما كان جنسه و لونه أن يطالب

---

[2]محمد خير الدين : "للحقيقة والتاريخ على هامش التعليم الرسمي"،جريدة البصائر ،العدد 12،126أوت 1938م،ص ص2–3.

[3]المراقب العام للجمعية الطرقية بقسنطينة: "شرذمة البصائر تعترف بالطرق ورجالها الأعلام"،جريدة النجاح العدد 2178 ،24 أوت 1938.

بنصيبه في العلم لتكمل بذلك إنسانيته وتتهذب طباعه فيؤدي و وظيفته في هذه الحياة كعضو نافع غير ضار ...في هذا العصر الذي يسمونه عصر الثورة و المدنية ...توصد المدارس الأهلية الدينية ...ونعلن لكافة المعلمين والجمعيات الدينية أن يدافعوا لدى المحاكم الابتدائية والمحاكم العليا عن حقهم الذي خوّله لهم القانون حين يرجع الحق إلى نصابه...>>.[1]

ومن بين الصراعات الأخرى في مقالات الشيخ خير الدين تلك التي كان يردّ من خلالها على السعيد الزاهري الذي كان ضمن أعضاء الجمعية ثم إنسحب منها،وأنشأ عدة جرائد،وقد كان الزاهري كثير الاتهام لمترجمنا، ومن بين تلك الاتهامات أنّ الشيخ خير الدين هدّد بائع جريدة الوفاق في بسكرة بينما مترجمنا يتّهمه بالوشاية للسلطة الفرنسية ،وقد ورد في إحدى مقالاته:<<إن حديثنا في كل ما نكتب هو مع فرنسا ...في سبيل تعلم ديننا و لغة ديننا من بعض النواحي الإدارية المتأثرة على الغالب بالوشايات الباطلة التي تضر بالجميع ...لكن صاحب الوفاق–التملاق–وهو من أولئك الوشاة المفضوحين حال في عدده الأخير أن يصرف كلامنا إلى ناحية أخرى وحديث عن دولة أجنبية...>>.[2]

وفيما يخص الاتهام الذي ألصقه السعيد الزاهري بالشيخ خير الدين فقد أجاب عنه أحد الكتاب في تلك الفترة بقوله:<< كتبت جريدة الوفاق عدد 13(في منبر الأحرار)تحت عنوان التهديد و الوعيد يقول كاتبها:جاءنا من بسكرة أنّ الشيخ خير الدين هدّد وواعد بائع الوفاق ببسكرة بالأذى إذا إستمر على بيع الوفاق وقال له...هكذا يقول الشيخ الزاهري في جريدته الوفاق ،وأنا أقول له أتعجّب كثيرا من رجل عالم كسيادة الشيخ الزاهري يتهم الأبرياء بقول الزّور ويلبسهم بلباس ليسوا من أهله ...و ها أنا أقول لك أرسل

---

(1) محمد خير الدين : "التعليم العربي الإسلامي بالجزائر" ،جريدة البصائر،العدد 115، 27ماي 1938م،ص02.

(2)محمد خير الدين : "الوفاق يتملّق"،جريدة البصائر ،العدد122 ، 15 جويلية 1938م،ص 3 .

جريدتك للكويتب الذي أخبرك، فهو يبيعها لك و أرح نفسك من الشغب و المشاغبة و لا تتّهم رجال الإصلاح بما ليس فيهم...>>[1] .

لقد كانت المقالات التي كتبها الشيخ خير الدين متنوعة وفي إتجاهات مختلفة لكنّها لم تخرج عن إطار مبادئ وأهداف الجمعية ،كما أنها تمتاز بالقصر و الدلالة، أما القصر فلأنّ مترجمنا كان كثير التنقل في أنحاء القطر ليتفقد المدارس و المساجد و حل بعض المشاكل التي تصادف الجمعية باعتباره مراقبا عاما للجمعية لذلك كان يقتطع بعضا من وقته للكتابة ،أما الدلالة فتخص المواضيع التي كان يتناولها فهي واضحة في أفكارها وعباراتها ليس فيها تلميح أو ترميز بل كانت مباشرة ،والمقالات التي كتبها عموما كانت عناصرها بارزة واضحة الأهداف، وكما ذكرنا سابقا فإنّ الشيخ خير الدين علاوة على المقالات التي كان يكتبها في جرائد و صحف الجمعية فإن معظم البلاغات التي كانت تنشرها جريدة البصائر كانت تحمل توقيعه تتضمن ما يخص بلاغات لجنة التعليم ،أو ما يقره المكتب الدائم للجمعية وبلاغات تخص شؤونا أخرى وكانت تحمل توقيع مترجمنا باعتباره النائب الثاني لرئيس الجمعية و نائب مدير معهد ابن باديس و رئيس لجنة التعليم.

و الحق أنّ صحافة الجمعية قد عانت الكثير خاصة في فترة الحرب العالمية الثانية (1939-1945م) حيث أصيبت بشلل تام بسبب تجميد نشاطها السياسي وفق المرسوم الذي صدر بتاريخ 27 أوت 1939م القاضي بمصادرة جميع الجرائد التي تتعرض إلى قضايا الأمن الوطني [1]،كما أن الركود في حركة الصحف مردّه أسباب أخرى حسب الدكتور عبد الكريم بو صفصاف[2] حيث يقول:<< وقد يعود هذا الركود في حركة الصحف إلى أسباب الحرب ذلك أن قادة الجمعية قد إختاروا السكوت والحياد الايجابي

---

[1]الأخضر بوزيدي: "تكذيب وردّ إفتراء"_،جريدة البصائر،العدد 123، 22 جويلية 1938م،ص8.

[1]عمار بو حوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962م،ط1،دار الغرب الاسلامي ،بيروت :1997م،ص264.

[2]عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين و علاقاتها بالحركات الجزائرية الاخرى،المرجع السابق،ص143.

لأنّ فرنسا كانت في حاجة إلى تأييد العلماء في حربها مع الألمان حتى تظهر للعالم أن شعوب المستعمرات الخاضعة لها تساندها ماديا ومعنويا ،وهذا ما كان ابن باديس والأغلبية الساحقة من أعضاء المجلس الإداري للجمعية قد رفضوه في إجتماع 1938م حيث أعلن ابن باديس بأنه لن يوافق على إرسال برقية التأييد إلى الحكومة ولو قطعت رأسه >>.

ورغم القرارات التي كانت تصدرها السلطة الفرنسية إلا أنّ نشاط الصحافة الإصلاحية إستمر بعد الحرب العالمية الثانية و إنطلقت جريدة البصائر في سلسلتها الثانية منذ 1947م ,و واصل الشيخ خير الدين نضاله الصحفي كباقي زملائه المصلحين في الجمعية بإتباع نهج الإمام ابن باديس إلى أن توقّف نشاط الجمعية نهائيا سنة 1956م والتحق أعضاؤها بالثورة التحريرية بعد أن تبلور الهدف الذي لطالما تمنّاه الجزائريون وأعدّت له جمعية العلماء صفوفا من جنودها بعد أن درّبتهم على الدفاع عن دينهم و لغتهم ليأتي الهدف الأخير، و هو تحرير الوطن .

خاتمة :

من خلال ما سبق ذكره نستنتج ان الشيخ محمد خير الدين قام بجهود عظيمة في مجال التربية والتعليم ، فالمدارس التي ساهم في بنائها بمراقبتها و متابعتها و تدشينها والتي بنيت لتعليم ابناء الجزائريين

والحفاظ على الدين الاسلامي من خطر التبشير المسيحي ،وسواء بنيت هذه المدارس و المساجد شرقا او غربا فذلك انما يدل على ان نشاط الجمعية لم يكن يخص منطقة دون اخرى و الحق ان تلك الانجازات قد ساهمت في الحفاظ على المقومات الشخصية .

و يمكن ان نعتبر ما كتبه الشيخ خير الدين من مقالات وان كانت قليلة فهي اضافة لمقالات اخرى كتبها زملاءه المصلحون كوسيلة من وسائل الجمعية للتعبير عن تمسك الجزائريين بدينهم ولغتهم ووطنهم ،و إن ما كتبه مترجمنا لم يكن للامتاع بل لمواجهة الاستعمار الفرنسي .

قائمة المصادر والمراجع :

***المصادر :**

<u>اولا :الكتب</u>

–الابراهيمي محمد البشير :سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمكزها العام نادي الترقي ، الجزائر ،دار الكتب ، الجزائر،1982 .

خير الدين محمد :مذكرات الشيخ محمد خير الدين ج1ج2 ، مؤسسة الضحى،2002 .

–المدني احمد توفيق :حياة كفاح (مذكرات)في الجزائر1925–1954 ،ج2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1977 .

ثانيا :الدوريات

–النجاح : اعداد 1931–1938 .

–الاصالة :العدد 24 ،الجزائر ،مارس –افريل ،1975 .

–الشهاب :ج8،مج 7،اوت 1931 .

–البصائر : اعداد السلسلة الاولى والسلسلة الثانية (1935–1939)،(1947–1956).

***المراجع :**

–بوصفصاف عبد الكريم :جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الاخرى ،دراسة تاريخية وايديولوجية مقارنة ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ،1996 .

–بوحوش عمار :التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962 ،ط1،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ،1997 .

–جوليان شارل اندري :افريقيا الشمالية تسير ،ترجمة المنجي سليم واخرون ،الدار التونسية للنشر ،تونس ،1976 .

–سعد الله ابو القاسم :الحركة الوطنية الجزائرية ج3،ط4 ،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ،1992 .

–ابحاث واراء في تاريخ الجزائر ،ج3 ،ط1 ،دار الغرب الاسلامي ،بيروت ،1990 .

–سيف الاسلام الزبير :تاريخ الصحافة في الجزائر ،ج4 ،المؤسسة الوطنيةللكتاب ، الجزائر ،1985 .

–عبد الرحمن عواطف :الصحافة العربية في الجزائر 1954–1962 ،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1985 .

–فضلاء محمد الطاهر :التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح ،ط1 ،دار البعث للطباعة ،قسنطينة ،الجزائر ،1982 .

-